القصة في الأدب الانجليزي

طه محمود طه

١ ـ التربة والجذور :

القصة رواية نثرية خيالية ، وكلمة « القصة » لاتستعمل بدقة فى اللغة الانجليزية وهى انما تعبر عن انواع كثيرة من الانتاج الادبى ، وكثيرا ما يتسع التعريف ليشمل قصصا منظومة وانواعا جديدة من النثر الخيالى القصصى . وقد استعملت الكلمة بادىء ذى بدء بمعناها الشائع الآن فى القرن الثامن عشر الميلادى وسرعان ما حلت محل كلمة «الرواية» او ما يعرف بالرومانس

وجدير بالذكر ان الفرق بين الكلمتين لم يحدد تحديدا دقيقا ، فبينما نجد ان الرواية قد تطلق على اعمال ادبية قصصية ، شعرية كانت ام خيالية بالرغم من اختلاف الاسلوب النثرى المستعمل وهو يتأرجح مابين الاسلوب الواقعى البسيط والاسلوب الشاعرى المعقد . اما من ناحية الشكل اوالصورة فلم يتحدد بعد مفهوم القصة من ناحية طولها تحديدا دقيقا وايا ما كان الامر فانه يمكننا أن نرتب انواعها المختلفة ترتيبا تنازليا من حيث طولها على النحو التالى : أولا : القصة ، ثانيا القصة الموجزة .

وهى اقصر من القصة القصيرة . ثالثا القصة القصيرة وهى اقصر من القصة الموجزة واطول من الاقصوصة ولاتحلل الشخوص تحليلا دقيقا وانما تعالج شخصية او حادثة واحدة . رابعا الاقصوصة وهى اقصر انواع القصص ولاتحتمل التحليل الدقيق للشخوص او الحوادث وانماتعطى رسما «كروكيا» لشخصية أو حادثة ما وتكتب بأسلوب سهل . ويطلق على هذا النوع احيانا . او رسوم الشخوص .

وقد كان كتاب القصة الاوائل يعتبرون القصة سردا واقعيا للاحداث سواء اكانت هذه الاحداث حقيقية او مختلقة ، وينظرون الى الرواية على انها نتاج ارستقراطى يوحى بالهروب من

عند قدماء المصريين (الثورة الفنية فى عهد اخناتون) كتذوقه للواقعية فى عصرنا هذا .

وقبل غزو النورمانديون لانجلترا فى عام ١٠٦٦ م بقيادة وليم الفاتح كان الانجليز والساكسون يجتمعون حول النار ليمضوا بالليل الطويل للاستماع لقصص المخاطرات لبيوولف وكينولف. وكانت هذه القصص ملاحم شعرية يتغنى بها الادباء وهى تشبه الى حد كبير المسلسلات الاذاعية الحديثة من حيث الاطناب والمبالغة لتسيطر على آذان السامعين اكثر من سيطرتها على اعينهم وكان كاتبها وهو مجهول يستعمل التكرار والسجع والجناس والكنايات والمبالغة فى الوصف .

وللقصة قواعد يجب مراعاتها ، فلكى تكون « قصة » بمعنى الكلمة يجب أن تكتب لتقرأ فى صمت ، وفى هذا الصمت يتم التقاء الكاتب والقارىء ويندمجان فالقصة، على عكس المسرحية ، لاتتطلب مشاهدين أو نظارة ولكنها تتطلب قراء واعين لتقاليدهم ومدركين لما يدور من حولهم من تغييرات اجتماعية أوثقافية. ويرجع تأخر ظهور القصة الى انه لم يكن فى انجلترا مثل هذا المجتمع الواعى فى العصو رالوسطى . والسبب الآخر هو سيطرة المسرح والشعر وشيوعهما وحب الجمهور لهما فى العصر الاليزابيثى. ولم تظهو القصة كما نعرفها فى الادب الانجليزى الا بعد أن أخذت المسرحية فى الذبول وفقدت المقام الاول الذى كانت تحتله فى الادب الانجليزى .وليس لدينا فى الادب الانجليزى الى ما قبل نهاية القرن السادس عشر ما يمكن أن نطلق عليه «النثرالقصصى» أو«القصة» بتعريفها الحالى ولكن جمهورا غفيرا من قراء القصة كان قد بدأ فعلا فى الظهور وتبع ذلك صحوة فنية وأدى هذا الى ظهور الكاتب القصصى والقصة ليعبرا عما يشعر به هذا الجمهور . وظهر مثل هذا النوع من الجمهور قبل ذلك بقرون فى أثينا ثوروما حين كان الشعب يستمع بشغف لحكايات الحب والمغامرات . وكل أنواع النثر القصصى التى نجدها فى الادب الانجليزى والادب الفرنسى ـ الرواية الرعوية أو الريفية (الباستورال رمانس) وأدب الشطار والصعاليك (البيكاريسك) والقصة العلمية والخيالية ـ لها جذورها فى الآداب الاخرى فى أعمال اخيليس تاتيوس وهيليودورس ولونجس . وقد بقيت بعض قصص هؤلاء الادباء وكان من الممكن أن يكون العدد أكبر من هذا ولكن بعضها فقد . وبطريقة غريبة معقدة شقت هذه القصص طريقها الى شمال أوروبا بواسطة التجار والقساوسة والفرسان أيام الحروب الصليبية . وكان ابسط هذه الانواع هو الذى يدور حول فشل حب البطلة والبطل لمولدهما تحت نجمين مختلفين. وقد وصل هذا النوع الى انجلترا ونما وترعرع خاصة بعد دراسة كتب ارسطو فى المسرحية وقواعد كتابتها وتفرع الى سلسلة من المغامرات والمواقف والحوادث المصطنعة التى تحل عقدتها عن طريق التعرف على الاشخاص بواسطة الشامات والعلامات الجسدية المميزة . ويمكن القول بأن جذور القصة الانجليزية يحتمل العثور عليها بين حطام الحضارة القديمة فى اليونان وايطاليا وبيزنطة

حيث ظهرت قصة الكأس المقدس وما دار حولها من حكايات عن الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة . وهكذا نرى فى ادب العصر الاليزابيثى وفى القصص الشعبى شخصيات وافكار وحوادث من العصر البيزنطى . ولم يفقد الناس اهتمامهم بالسحر والشعوذة والمغامرات والفروسية حتى بعد انتهاء تلك العصور بل ظلت تلك الافكار تحظى بمكانة عالية فى النثر القصصى .

وقد ساعد الغزو النورماندى لانجلترا على انتشار التراث الكلاسيكى ، كما ساعد احتكاك الصليبيين بالشرق على تغذية الخيال الانجليزى كما نراه فى قصة فلورنس وبلانشفلير التى تقدم لنا لونا شرقيا . وقد تحسنت حالة الشعب اثناء الاستقرار النسبى الذى تلا الغزو النورماندى وعاش كثير من الكتاب الفرنسيين طوال قرنين من الزمان فى بلاط ملوك انجلترا وكان معظمهم من المؤرخين الذين احيوا الاهتمام مرة اخرى بتاريخ حرب طروادة كما انكب الرهبان فى صومعاتهم على نسخ روائع الادب الاغريقى والرومانى . وكان من اشهر هؤلاء الكتاب بنوا دى سانت مور الذى عاش فى بلاط هنرى الثالث وترجم درايس (ويقول عنه هومر انه كان قسيسا عاش أثناء تدمير طروادة) الى رواية شعرية من ٣٠٠٠٠ بيت .

وفى ترجمته أضاف حواش كثيرة الى القصة الاصلية فى النص اللاتينى القصير وانقلب ابطال طروادة الى فرسان عصور وسطى واصبحت البطلات سيدات بلاط . ويحكى بنوا ، وربما لاول مرة ، قصة تروبلس وكريسدة التى اوحت لتشوسر بنفس الموضوع .

والرواية فى العصور الوسطى فى انجلترا تعتمد على اصل لاتينى او أو فرنسى . وقد ازدهر هذا النوع من الادب فى انجلترا فيما بين عام ١٢٠٠ ، ١٥٠٠ م واصبح يكون جزءا هاما فى الانجليزى . ومن أهم خصائص الرواية عدم مطابقتها للواقع سواء فى رسم الشخوص او فى سرد الحوادث ولهذا لا تخرج عن كونها اولا : مبالغة فى وصف رذائل الطبيعة البشرية أومحاولة لوصف الفضائل بصورة مثالية ، ثانيا ، ميل شديد لوصف كل ما هو غريب وبعيد ورائع ومستحيل . ثالثا ، اهمية التفانى الشديد فى حب سيدة جميلة وعبادتها بطريقة عاطفية مبالغ فيها ، ومصدر هذه الفكرة هو تقديس العذراء مريم . رابعا ، وجود هدف يسعى اليه البطل كالعثور على الكأس المقدس مثلا . خامسا ، وجود عنصر دينى هام أو الاغراق فى الخيال وخوارق الطبيعة او كليهما . سادسا ، تحليل الشخصيات بطريقة مثالية نموذجية رمزية . سابعا ، التحلل الى حد ما من قيود تسلسل الحوادث تسلسلا عضويا منطقيا .

القرن الرابع عشر :

وفى القرن الرابع عشر اكتفى الشعب بالروايات المنظومة مثل روبن هود وماريان ومغامرات بيفيز أوف هامتون وكانت تصور معارك العمالقة وورع العصور

الوسطى التى كانت عصورا يسهل فيها الخلط بين ما هو طبيعى حقيقى وماهو اسطورى خارق للطبيعة ، وبين العلم والسحر . وكان المنشدون يطوفون البلاد من مكان لآخر يروون هذه الاساطير الشعرية التى لا نهاية لها ، ولكنها كانت قصصا ، كما يقول سير فيليب سدنى، « تنسى الاطفال لعبهم وتلهى الكبار عن مدفئتهم» .

وبمرور الزمن فتر حماس الناس لهذه الاساطير التى تتصارع فيها العمالقة وتظهر فيها الوحوش العطشى الى الدماء وأصبحت هذه القصص تروى للاطفال وأخذ المنشدون يتفننون بقصص الحب بين الفرسان . وحتى بعد ظهور الطباعة فى عام ١٤٤٠ م لن يكن المتعلمون الذين يستطيعون القراءة سوى طبقة المهنيين والطبقة الراقية من سيدات ورجال . ولكن عامة الشعب ، بالرغم من جهلهم بالقراءة والكتابة ، كان لديهم قدر كبير من المعلومات . ففى القرى كان الناس يعرفون سيرة القديسين وقصص الاغريق والرومان ولديهم قدر كبير من المعلومات عن الميثولوجيا الاغريقية ، ومن كان منهم يعرف اسم الاسكندر لم يفته حتى معرفة اسم حصانه .

ولكن بالرغم من كل هذه القصص وسرد الاساطير والحكايات لم يظهر أى شىء يمكننا أن نطلق عليه كلمة «قصة» أو النثر القصصى ، وربما لو كتب تشوسر رواية ترويلس وكريسدة نثرا للقبناه ابو القصة الحديثة بدلا من ريتشاردسون مثلا ، لان تشوسر فى هذه الرواية المنظومة يسرد لنا قصة بأسلوب طبيعى طبيعى وبرقة ومرح وتحليل نفسى قل أن يوجد مثله فى عصره ذاك. فتحليله لشخصية كريسده وتفهمه لها وما تعرضت له من اغراء فى المعسكر الاغريقى ورغبتها الصادقة وفشلها فى أن تكون مخلصة لحبيبها الغائب تظهر لنا عبقرية لا نجدها فى الادب الانجليزى قبل أن يطلع علينا ريتشاردسون ببطلته كلاريسا . ولكن النثر ، الذى يعتبر الوسيلة الوحيدة فى كتابة القصة ، تطور ببطء شديد ولم يتحقق الامل الكامن فى رائعة تشوسر الفنية الا بعد مضى ثلاثة قرون .

وتعتبر سنة ١٣٧٧ تاريخا مشهودا فى تطور النثر القصصى فى انجلترا بظهور رحلات سير جون ماندفيل وهى مترجمة عن الفرنسية . وقد اعجب الشعب فى بادىء الامر بهذه الرواية لمغامرات هذا الفارس الانجليزى ورحلاته الى فلسطين والصين واعتبرها سردا واقعيا حقيقيا ولو ان فيها شيئا من الغرابة لفارس غربى بين شعوب شرقية وما كان على الشعب الا أن يتقبلها فقد كان يؤمن كما قلنا، بكل شىء دون تمييز أو تدقيق. وكانت الرواية كلها مختلفة ولا تمت للحقيقة بصلة على خلاف ما سيفعله ديفو بعد ذلك بثلاثة قرون .

القرن الخامس عشر :

وفى القرن الخامس عشر ساعد ظهور الطباعة على انتشار تذوق النثر القصصى وسهولة تداوله . ومن الغريب شخص مثل كاكستون اسس النثر الانجليزى البسيط ويضفى على اللغة سهولة ووضوحا فى التعبير وبهذا يعطى

للقصة اهم عامل من عوامل انتشارها الا وهو جمهور القراء . وقد اعجب كاكستون ، بعد ان عاش لسنوات عدة فى فرنسا ، بالاسلوب الفرنسى وسهولته وجماله وحاول ان ينتقل هذه الخصائص الى الانجليزية بترجمة عودة تاريخ طروادة» عام ١٤٧٤ وكان اختياره للموضوع مهما . ولما كان من رجال الاعمال فقد كان من الطبيعى ان يفضل النثر على الشعر فى ترجمته فوق هذا كان يشعر ويحس بما يشعر ويحس به عامة الشعب . وكانت مادة حروب طروادة فى اذهان الناس وتعتبر موضوعا محببا الى نفوسهم مما دعاه الى طبع رواياته على مطبعته فى وستمنستر . وهكذا ظل ادب العصور الوسطى حيا فى اذهان جمهور القراء فيما بعد من الاجيال الجديدة . وبمرور الزمن ظهرت طبعات مختصرة وملخصة لهذه الروايات ووجدت طريقها الى زكيبة البائع المتجول ونقلت الى القرى والمدن فى انجلترا فى ذلك العصر .

وكان حب الجمهور للروايات هو الذى دعا كالستون الى نشر ترجمة سير توماس مالورى لقصة موت الملك آثر واصبح هذا العمل النثرى كنزا ضخما جمعت مادته من مصادر مختلفة لقدر عظيم من ادب الفروسية الرومانتيكى . وعاش سير توماس فى هذه الفترة العصيبة وجمع رواية موت الملك آثر فى السجن بين عامى ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ والقصة تلخص لنا وجهة نظر مالورى الى الماضى بحسرة وحزن سنجدهما فيما بعد فى قصص سير والتر سكوت . وكان للجو الرومانتيكى الذى خلقه مالورى فى هذه الرواية اكبر الاثر فيمن اتوا من بعده من كتاب القصة . وقد قام كاكستون بطبع هذه الرواية واصبح من السهل سرد القصة نثرا وتمكن النثر بواقعيته وسهولته من التغلب على محسنات الشعر وكان لهذا الصراع بين الشعر والنثر اثرم فى تطور القصة فى الادب الانجليزى .

ولم يكن للقصة ان تظهر الى حيز الوجود الا بعد ان ندرك الحاجة الماسة الى اسلوب نثرى طبيعى . فالرواية المنظومة مخلوق مربع والوزن شىء مفتعل يوحى باثارة مفتعلة للعاطفة ويعتبر الى جانب ذلك نوع من التقيد تفرضه علينا طبيعة حياتنا اليومية . كما ان لغة الخيال تختلف اختلافا كبيرا عن لغة الحياة والواقع واللغة الشاعرية هى نتاج لحظات عابرة قصيرة فى حياة الانسان وليست غذاءه اليومى التى تعنى به القصة عناية فائقة .

وكان من اثر هذا التاخر فى تطور القصة عدم وجود فن واع لرواية القصة واصبحت الجودة محض صدفة وليست نتيجة لتخطيط منظم او دراسة واعية . فارسطو لم يضع قواعد لكتابة القصة وانما وضع قواعد للماساة وكذلك لم يشير الى اثرها الفنى وعلى احسن الفروض كانت القصة تعتبر ملحمة نثرية (فيلدنج) واذا كان هذا يعتبر من الناحية الفنية تاخرا فى ظهورها ، فقد كان ميزة لكتاب القصة، لان الكاتب القصصى اصبح فى حل من قيود القدامى بعكس كتاب المسرحية .

وهكذا تمكنت القصة، وقد اصبحت حرة من قيود المسرحية ، من ان

تتشكل وتتطور فى عصورها المختلفة وتعكس احتياجات العصر الذى تكتب فيه من ناحية الشكل ومن ناحية المضمون . وعن طريق التجارب ، واحيانا عن طريق الصدفة ، اهتدت القصة الىأحسن اداةللتعبير واصبحت لها حساسية فائقة لاستقبال التقلبات المختلفةسواء كانتاجتماعيةاو سياسية او علمية .

ومن اهم الاسباب التى ادت الى تطور النثر القصصى فىالعصرالاليزابيثى التراجم التىنشرت للروايات الكلاسيكية التى اكتشفت فى عصر النهضة لانه ، كما اوردنا ، لولا هذهالتجارب فىالادب الكلاسيكى لما امكن للقصة ان تظهر بشكلها الحالى فى الادب الانجليزى . فلولا هذا التراث لبقيت عقلية العصور الوسطى بخرافاتها وعدم حرصها على التمييز متسلطة على القصة كما فىدون كيشوت . وحتى لو فرضنا ان الادب الكلاسيكى يزخر بالمغامرات والحكايات الخيالية البعيدة الاحتمال فعلى أقل تقدير كان ابطال رواياته من دم ولحم حتى ولو كانوا آلهة .

ولم تحل سنة ١٥٩٧ م الا وكان معظم التراث الكلاسيكى مترجما الى الانجليزية واصبحت هذه التراجم فيما بعد شائق شيوع المؤلفات الانجليزية نفسها وبعضها كان له اثر قوى مماثل لاثر روائع العصر نفسه . واشهر ما ترجم فى العصر الاليزابيثى كان التاريخ الاثيوبى
لهليودورس ، كلوتوفون وليوكيب وهى من نوع البيكاريسك لاخيليس تاتيوس وكتب فى القرن الثالث الميلادى وهما روايتان اغريقيتان . ومن اشهر الروائيين القدامى لونجس مؤلف الرواية الرعوية

دافنيس وكلو وقد عرفها الشعب عن طريق ترجمة فرنسية لاميو

وفيها وصف لأركيديا

تلك الارض الخيالية للعشاق من الرعاة ، تجرى فيها الجداول وينبت فيها الزرع فى وديان خصبة ، ولايبلغ الانسان فيها الشيخوخة والفرض الاساسى فى الحياة فى هذا الفردوس الارضى هو التمتع بالطبيعة والحب والجمال .

وهكذا ترجع بنا جذور النثر القصصى الى ثلاثة فروع : فمن هيليودورس نبتت قصص المغامرات والمخاطرات والتى نراها على احسن وجه فيما بعد فى قصص فيلدنج وسير ولترسكوتومن اكيليس تاتيوس وبترونيس نبتت قصص المحتالين (البيكاريسك) ونراها فى قصص ومن لونجس نبتت قصصالحب الرومانتيكى وعددها فى عصرنا لايحصى .

واسلوب هيلودورس اسلوب فحل، اسلوب الكاتب الواثق من نفسه وتظهر حيويته الدافقة فى حبكة رواياته التى وان كانت معقدةاحيانا، الا انها ليست مربكة . اما لونجس فقد استعاض عن سرعة الحركة الخارجية فى رواياته بالاهتمام بالتحليل النفسى والقلب الانسانى وفى روايته دافنيس وكلو يحكى قصة طفلين وجدهما راع فى

ظروف غامضة ، وتبناهما حتى كبر وتحابا وتنتهى الرواية ككل الروايات الغرامية بالزواج ولكن بعد ان تعرف شخصية البطل والبطلة . واسلوب لونجس يتميز بالسهولة حتى ليعد اسلوبا غير فنى ولكن حتم عليه ذلك بساطة الفكرة وطبيعة القصة نفسها وبساطة الحياة والعادات الريفية . واعظم خدمة اسداها لونجس للقصة تكمن فى مقدرته على اظهار الطبيعة البشرية لا فى شخوص عظيمة فى صراعها مع الاقدار فى ملحمة شعرية ولكن فى بساطة النبل الفطرى كما يتمثل فى راع وراعية . ويظهر اثره فى العصر الاليزابيثى فى اعمال توماس لودج مثل روزاليند وهى رواية ريفية بنى عليها شكسبير مسرحية (كما يحلو لك) .

ويعتبر ريتشاردسون فى القرن الثامن عشر ويروست فى القرن العشرين من اتباع لونجس حيث يضحيان بالحركة الخارجية فى سبيل ابراز الطبيعة البشرية والتحليل النفسى للشخوص.

وبالاضافة الى الجذور السابقة التى استمدت منها القصة غذاءها نرى انها امتصت كذلك عصارة الادب الايطالى والفرنسى والاسبانى ـ تلك الروائع التى اعطتها نضارة وجعلتها اصلب عودا واقدر على النمو والتكييف ، فالنثر القصصى الاليزابيثى يحمل دائما طابع الاقتباس من الآداب الاخرى . ونظرة واحدة الى مسرحيات شكسبير كافية لان تعطينا هذه الفكرة

وقد شاهد القرن السادس عشر فى انجلترا ثورة فى فن المعمار وزينت القصور بما نهب من الاديرة وتدفق الذهب والفضة الى خزائن الدولة وبدات عظمة عصر النهضة فى الظهور واخذت تهزأ بتقشف العصور الوسطى وتقواها. ولكن هذه القصور والصنيعات ظهرت الى حيز الوجود على حساب الطبقة الفقيرة واصبحت مصائب قوم عند قوم فوائد . وانتشرت البطالة والبؤس والفقر كما يظهر من كثرة التشريعات والقوانين . ومات كثير من افراد الشعب تحت اسوار هذه القصور من شدة الجوع والذى جرا منهم على تحدى السلطات الحاكمة وبطشها اوغل فى الجريمة وتعرض لعقاب صارم بعدها. وشهدت الشوارع التى كانت تطوف بها المواكب الملكية وعربات الارستقراطيين ابشع انواع الفقر والمرض ولحقت هذه الحالة ببعض النبلاء الذين اضطروا الى بيع ممتلكاتهم والنزوح الى المدينة الفوضى حتى فى لندن نفسها . وربما تعطى روايات ذلك العصر فكرة خاطئة عن حالة المجتمع ، ففى استطاعتها ان تعطى للحياة جوا شاعريا جميلا ولكن المقالات والنشرات فى ذلك قاتمة عن آمال الطبقة الفقيرة الضائعة وربما نستطيع من هنا ان نعلل سبب الانسجام او التعاطف بين الادب الانجليزى والادب الاسبانى فى ذلك الوقت اذا قارنا حالة اسبانيا الاقتصادية بحالة انجلترا فقد اجهدت الحرب اسبانيا (ثورة الهولنديين وهزيمة الارمادى سنة ١٥٨٨) وانتشر فيها الفساد واصبح النبلاء فيها فقراء والفقراء تحولوا الى محتالين وافاقين ومتشردين .

والكتاب الذى يصور حالة اسبانيا

فى ذلك الوقت تصويرا واقعيا هو لص تورميز

وهو لمؤلف مجهول نشر عام ١٥٥٤ وظهرت له ترجمة انجليزية فى عام ١٥٧٦ .

وقد اعطى هذا الكتاب للادب الانجليزى نوعا جديدا من القصة فى موضوعهاوفى اسمها الا وهو البيكاريسك والكتاب ترجمة ذاتية لحياة محتال وكان ابنا غير شرعى لصاحب طاحون من محظيته عاش على ضفاف نهر تورميز بالقرب من سالامانكو . ويبدأ البطل حياة النصب والخداع بالعمل كدليل لرجل اعمى وكان يسرق طعامه وماله . وبعد ان عمل مع عدد من الفقراء والافاقين اصبح مناديا لبلده توليدو بعد ان تزوج من عشيقة قسيس الكنيسة .

يصف وصفا ساخرا بعض الانماط او الطرز الإسبانية . وفى عالم يتغير هكذا لم يكن هناك سوى فلسفة واحدة للمحتال تتلخص فيما يلى : « ليس هناك اسوا من هذه الحالة والطريقة الوحيدة للتخفيف من شرور الحياة وقسوتها هو ان يضحك الانسان على سخفها » .

وقد هيأت له حياته العملية ان يصف وصفا ساخرا بعض الانماط او الطرز الاسبانية . وفى عالم يتغير هكذا لم يكن هناك سوى فلسفة واحدة للمحتال تتلخص فيما يلى : « ليس هناك اسوا من هذه الحالة والطريقة الوحيدة للتخفيف من شرور الحياة وقسوتها هو ان يضحك الانسان على سخفها » .

وقد اوحى هذا الخليط الاسبانى والخيال والمثالية لتوماس ناش بكتابة العجيب من السخرية والفكاهةوالعظات « حياة جاك ويلتون » فى عام ١٥٩٤ حكاية بيكاريسك تحكى قصة جندى خبيث فى جيش الملك هنرى الثامن يتعيش من حضور بداهته ومن مدقرته على النصب والاحتيال على جزر بخيل وآخرين من سكان منزله ويجلد فى النهاية . ويسافر جاك الى الفلاندرز والمانيا وايطاليا ويستمتع بمغامرات كثيرة اهمها مشاهدته لارازموس وهو يكتب « فى مدح الحماقة » والى مارتن لوثر وهو يهاجم البابا .

ولم يكن معظم النثر الروائى الاليزابيثى بهذه الكيفية بل كان هناك نوع آخر يعالج المشاكل الاجتماعية ويوحى الينا بما ستكون عليه القصة الواقعية فيما بعد . فنجد توماس ديلونى يجوب القرى والمدن ينشد رواياته المنظومة ليعبر فيها عن آلام مواطنيه ويصفعالم العامل من الطبقات الوسطى . واحسن هذه الحكايات هى ١٥٩٧ (جاك اوف نيوبرى) وهى تحكى قصة صبى فى مصنع نسيج يرقى حتى يتزوج ارملة صاحب المصنع التى لاتناسبه فى السن او المكانة ولكنه يصبح تاجر اقمشة شهير يضم مصنعه خمسمائة عامل فقير « وكلهم يعملون لصالح الكومونولث » وتموت زوجته ويختار زوجة خادمة كانت تعمل فى منزله ويتنازل بطريقة عاطفية عن المهر الذى يجب ان تقدمه اليه . وتستمر القصة لتحكى قصة